كيفية الوحي
وطبيعة الكتاب المقدس

د. جوني عوّاد
كلية اللاهوت للشرق الأدنى – بيروت

ما من أحد يشكك في أن للكتاب المقدس مكانة مركزية وخاصة في حياة وعبادة الكنيسة المسيحية بكل فروعها وتشعباتها، وعلى أنه المكوّن الرئيسي للهوية المسيحية والمصدر الأساسي للإيمان والحياة. القول إن الكتاب المقدس هو من وحي الله، أو ما تعنيه الكلمة اليونانية Theopnustos في ٢ تيموثاوس ٣:١٦ أن الكتاب هو من روح الله، أو من نَفَسِه، هو قاسم مسكونيّ مشترك. لكن هذا القاسم المشترك لا يعني بالضرورة أن جميع المسيحيين متفقين حول الطريقة التي تشرح فيها عقيدة الوحي، أو بالتحديد كيفية الوحي.

من هنا، لا بد من التوقف، ولو باختصار، حول ما يقوله الكتاب المقدس عن نفسه من ناحية موضوع الوحي. هناك نصّان من العهد الجديد غالبًا ما يُستعملان في الحديث عن الوحي. هذا لا يعني أنهما النصّان الوحيدان، إنما النصّان الأكثر استعمالاً.

النص الأول هو من ٢ تيموثاوس ٣:١٦: «لأن كل الكتاب موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ للتقويم والتأديب الذي في البر»[١].

نسأل عن أي كتاب يتحدث الكاتب. بالتأكيد عن كتاب العهد القديم، ذلك لأن كتابات العهد الجديد لم تكن قد اكتملت كتابتها، أو قد جُمِعت بعد. نسأل: ما هدف النص؟ الهدف هو التشديد على استمرارية الفائدة من العهد القديم لأمور تتعلق بالتعليم والتوبيخ والتقويم والتأديب، حتى بعد أن يكون قد تعرف

(١) كل الشواهد الكتابية مأخوذة من ترجمة البستاني – فانديك.

الإنسان على ركائز الإيمان المسيحي. نسأل عمّا يقوله النص عن الوحي في الكتاب. كل ما يقوله النص هو أن العهد القديم هو من روح الله، من نَفَسِه.

من غير المنطقي إذاً أخذ هذا النص وما يقوله عن أن العهد القديم هو من روح الله، وتطبيقه على كل الكتاب المقدس بعهدَيه القديم والجديد. أنا لا أنفي بهذا القول أن الكتاب بعهدَيه هو من روح الله ومن نَفَسِه. ما أنفيه هو بناء نظرية عن الوحي في الكتاب المقدس من خلال هذا النص. عندما حرّر الكاتب هذا النص لم يقصد الكتاب بعهدَيه لأنّ فكرة قانون محدد يُسَمَّى العهد الجديد، أو كتاب مقدس بعهدَين، لم تكن قد ولدت بعد. كاتب الرسالة لديه القناعة أن للعهد القديم دورًا أساسيًا في خلاص تيموثاوس وخلاص الآخرين، وأن له دورًا أيضًا في الكرازة المسيحية، ذلك لأنه يشهد للمسيح، ومن هنا نَسَبُهُ إلى روح الله. لكن النص لا يتحدث عن الطريقة أو الشكل أو الصيغة أو الكيفية للوحي.

النص الثاني هو من رسالة بطرس الثانية ١:٢٠–٢١: «عالمين أولاً أن كل نبوءة الكتاب ليست من تفسير خاص، لأنه لم تأتِ نبوءة قط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس». هذا النص معقد بعض الشيء، ويفترض فهمه الدخول في السياق المباشر والأوسع له. لكن، باختصار، ما يشدد عليه النص بوضوح هو أن نبوءة العهد القديم، أو نبوءة الرسل (انظر ٢ بط ٣:٢) هي كلام أناس مساقين من الروح القدس، ويدعو القارىء إلى أخذ هذه النبوءات بجدية، لأن لها دورًا أساسيًا في فهم الإيمان المسيحي وفي شهادتها ليسوع المسيح.

هذان النصان واضحان في أن الكنيسة المسيحية الأولى ثمّنت، ووثقت بالعهد القديم على أنه من روح الله، لكنها لم تشعر يومًا بتقيّدها الحرفيّ تجاهه. عدم تردّد يسوع في إعادة الصياغة لبعض الوصايا الكتابية في موعظته على الجبل (متّى ٥:٢١–٤٥: «قد سمعتم أنه قيل...، أما أنا فأقول لكم...»)، أو أن يُعلّم

تعاليم تتضارب مع الكتاب في ما خص ما يُدنّس الإنسان (مرقس ٧: ١٤–١٩؛ لاويون ١١)، أو في ما خص موضوع الطلاق (مرقس ١٠: ٢– ٩، إذ إن موسى قد أَذِن بكتاب طلاق، لكنّ يسوع عَلَّم أنّ من طلّق وتزوّج قد زنى) – كل هذه الأمور تشير إلى أنّ يسوع والكنيسة الأولى لم يتقيّدَا بحرفية الكتاب، رغم إقرارهما أنه موحى به من الله. النظر إلى الكتاب المقدس من هذه الزاوية يكشف لنا أن الله هو إله الماضي والمستقبل، وهو حرّ في أن يعيد خلق معنى الماضي في الحاضر والمستقبل، حتى لو كان هناك تضارب. ألم تكن أمانة بطرس للماضي المقدس تعيق سماع كلمة الله له حول ما هو مسموح أكله حسب أعمال ١٠: ٩– ١٧، كلمة تردد في قبولها رغم أنها قيلت له ثلاث مرات؟

بالرغم من أهمية النصَّين المذكورَين أعلاه، والأضواء التي يُلقيَانها على فهم يسوع والرسل الأوائل للعهد القديم، غير أنهما لا يقولاَ الكثير عن كيفية الوحي.

للإضاءة على موضوع كيفية الوحي، يطرح باحثو الكتاب المقدس نموذجَين نبويَّين استعملاَ منذ زمن طويل، ولا يزالان يُستعملان حتّى يومنا الحاضر(٢). النموذج الأول هو نموذج النبي إرميا: «كلام إرميا بن حلقيا من الكهنة الذين في عناثوث في أرض بنيامين الذي كانت كلمة الرب إليه في أيام يوشيا» (١: ٩). الكلام هوكلام إرميا، كلام بشريّ. لكن مصدره الأساسي هو كلام الله إليه. الوحي هنا هو وحي فكريّ. عمل الروح يتموضع في فكر الكاتب، فيلمس الروح قلبه وفكره، مؤثرًا فيه، ويعبّر الكاتب عن عمل الروح هذا بلغة بشرية تنتمي بعجزها ومحدوديتها إلى عالمه الاجتماعي والثقافي والحضاري والفكري. هذا الوحي الفكري للكاتب لا يجرده من طاقاته، وعقله وعواطفه. وفي مكان آخر يقول نص إرميا: «هذه الكلمات صارت إلى إرميا من قِبَلِ الرب

(٢) Raymond COLLINS, "Inspiration," *The New Jerome Biblical Commentary*. Edited by Raymond BROWN, Joseph FITZMYER, Roland MURPHY (London: Geoffrey Chapman, 2000) 1028. Paul Achtemeier, *Inspiration and Authority* (Peabody: Hendrickson, 1999) 16-22.

قائلة: خذ لنفسك دَرجَ سفرٍ واكتب فيه الكلام الذي كلمتك به...» (٣٦:١-٤). وفي نهاية الإصحاح يذكر النص أن إرميا أخذ درجًا آخر، ودفعه لباروخ الكاتب، فكتب فيه عن فم إرميا كل السفر الذي أحرقه يهوياقيم ملك يهوذا بالنار، وزيد عليه كلام كثير مثله (٣٦:٣٢). يشير نموذج إرميا النبوي بوضوح إلى أن كيفية الوحي هي فكرية، لكن عمل الروح لا يُعطل شخصية الكاتب.

أما النموذج النبوي الثاني فهو مأخوذ من حزقيال. حسب الإصحاحات الافتتاحية لحزقيال، تنفتح السموات له، فيرى رؤى الله ولا يفهمها. ثم يُعطى رسالة غير مسموعة ولا مفهومة، إذ يأمره الله أن يأكل دَرْجًا، وفي الدَّرْج كلام الله الذي سينطق به حزقيال إلى بيت إسرائيل. حسب هذا النموذج، فإن عمل الروح يتموضع في الكلمات ذاتها التي يتلفظ بها الكاتب، فيكون مجرد قناة، لا أكثر ولا أقل، لإملاء الروح. هنا فِكْرُ الكاتب شبه مشلول، ولا يلعب أيَّ دور لأنّ الروح هو الذي يُملي، ويدوّن من خلال شخصية إلى حد ما معطلة. كيفية الوحي حسب النموذج النبوي لحزقيال أُطلق عليها في الأوساط العلمية واللاهوتية اسم «الوحي اللفظي» أو «الحرفي».

إذاً، عندما نتكلم عن كيفية الوحي، لدينا نظريتان، تمّ تدعيمهما كتابيًّا، أو نموذجان كتابيان أطلقَا العنان لنظريتَين حول كيفية الوحي، وعُمِّمَا على كل الكتاب المقدس: الوحي الفكري (نموذج إرميا)، والوحي اللفظي أو الحرفي (نموذج حزقيال). في كِلا النموذجَين، هناك كاتب واحد متلقٍ للوحي. وهنا، باعتقادي، تكمن المشكلة في النموذج النبويّ لكيفية الوحي.

يقيني، أن هذين المفهومَين، أو النموذجَين، لكيفية الوحي أصبحَا عتيقَي الزيّ وبحاجة إلى تغيير. نحن بحاجة إلى خطاب لاهوتي جديد لكيفية الوحي يأخذ بعين الاعتبار وبجدية نتاج ما توصّل إليه البحث العلمي في حقل الكتاب

المقدس، وبالأخص ما يكشفه هذا البحث عن طبيعة الكتاب المقدس. لا يسمح حجم المقالة هذه بالتوسع بما يكشفه البحث العلميّ عن طبيعة العهدين، لذا سأحصر العرض بالعهد الجديد، ولي كل القناعة أن ما قد يقال عن العهد الجديد يسري على العهد القديم أيضًا.

الكل يعرف أن رسائل بولس الرسول هي أقدم كتابات العهد الجديد، وقد كُتبت في الخمسينات وأوائل الستينات ميلاديًا، أي بعد ٢٠ إلى ٣٠ سنة من الحدث الإلهي في صلب يسوع وقيامته. والكلّ يعرف أيضًا أنّ إنجيل مرقس، حسب أكثرية الباحثين، كان أول إنجيل كُتب، وذلك في أواخر الستينات، أي بعد حوالي ٤٠ سنة من صلب يسوع وقيامته. والكل يعرف أيضًا أن هناك تشابهًا بين الأناجيل الثلاث الأُوَل، يصل في بعض الأحيان إلى حد التشابه الحرفيّ بينها، وأنه، حسب أحد النظريات التي تحاول تفسير هذا التشابه، كلٌّ من إنجيلَي متّى ولوقا استعملاَ إنجيل مرقس كمصدر أساسي في صياغة إنجيلَيهما، بالإضافة إلى مصدر آخر مشترك بينهما سُمِّي بـ Q. هذه النظريات العلمية في دراسة العهد الجديد هي من المسلّمات، وهناك شبه إجماع عليها.

إذًا، هناك مسافة زمنية، ليست بقصيرة، بين الحدث الإلهي بيسوع المسيح، من جهة، وبين كتابة الرسائل والأناجيل، من جهة أخرى. ما الذي كان يجري خلال تلك السنوات الصامتة أدبيًّا (أي بين ٢٠ و٥٠ ميلاديًّا)؟ هذه الفترة الصامتة أدبيًّا يُطلَق عليها اسم فترة التراث الشفهي. خلالها كانت الجماعات المسيحية (جماعات الإيمان)، على تنوّعها، تتناقل بشكل شفهي تراثًا حول معنى الحدث الإلهي بيسوع المسيح، وضمنه تراثٌ شفهيٌّ فيه ذكريات من حياة يسوع على الأرض وتعاليمه، وعجائبه، وصلبه وقيامته. هذا التراث الشفهيّ أغنى حياة أفراد تلك الجماعات وكان المكوّن الأساسيّ في الأمور المتعلقة بالتعليم، والكرازة والشهادة.

لم يكن هذا التراث جامدًا ومتحجرًا، بل كان مرنًا وحيًّا ومتحرّكًا. كلما قامت جماعة الإيمان بالكرازة والتعليم والعبادة كانت تعيد تفسير هذا التراث. كلما واجهت جماعات الإيمان ظروفًا جديدة، أو وجدت نفسها أمام معطيات جديدة قامت بإعادة التفسير لهذا التراث وإعادة صياغته بشكل يحاكي واقع ظروف هذه الجماعات.

هذا التراث الحيّ المتجدّد أَمَّنَ الحماية للحدث الإلهي بالمسيح كي لا يضيع ويصبح من الماضي. في الوقت ذاته كان هذا التراث، وإعادة تفسيره وصياغته، يصرّان على أن تكون هوية جماعات الإيمان وحياتها منسجمتَين ومتناغمتَين مع الحدث الأساس. التراث أَمَّنَ التواصل مع الماضي، وكان المكوّن والمُشكِّل للحاضر، ومعطي الأمل والرجاء للمستقبل.

خلف صفحات العهد الجديد حدثٌ إلهيّ شكّل تراثًا تنامى وتحرّك وتفاعل وتنوّع، وأُعيد تفسيره وصياغته، حتى وصل إلى الصيغة النهائية، كما هي موجودة في نصوص العهد الجديد.

حتى بعد أن وصل التراث إلى صياغة نهائية، لم تتوقف عملية إعادة تفسير هذا التراث. إن اعتماد كل من لوقا ومتّى على إنجيل مرقس كمصدر أساسي في صياغة إنجيلَيهما هو دلالة على أنّ الوصول إلى نصّ نهائيّ لا يلغي بالضرورة عملية إعادة تفسير التراث. يتحدث لوقا في بداية إنجيله قائلاً: «إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقّنة عندنا...». كثيرون هم القصاصون، ولكن في ذهن كاتب إنجيل لوقا، يبقى مرقس الأبرز. إعادة صياغة التراث الموجود في إنجيل مرقس من قبل متّى ولوقا لم تكن بدافع إضافة معلومات جديدة عن حياة يسوع، أو بدافع كتابة سيرة تاريخية عنه، إنما بدافع ظروف جديدة حتّمت فكرًا لاهوتيًّا جديدًا.

كل رسائل بولس كانت ظرفية، جَهِد من خلالها أن يعيد تفسير التراث الذي استلمه عن الحدث الإلهي بيسوع المسيح، مقرونًا بإعادة صياغة العهد القديم

وتفسيره ليحاكي جماعات كانت تحاول أن تعيش حياة متناغمة مع ذلك الحدث الذي أولدها.

إن من يقرأ الكتابات اليوحنية (إنجيل يوحنا، والرسائل الثلاث، وحتى كتاب الرؤيا)، يصعب عليه القبول أن يوحنا بن زبدى، أو فردًا واحدًا، يقف وراء تلك الكتابات المتنوعة. لكن من المحتمل القول إنّ هذه الكتابات نتاج أشخاص أو جماعات جاهدت في سبيل العيش بأمانة للتراث المترافق مع كرازة يوحنا للإيمان – أفراد وجماعات أعادت بدورها تفسير وصياغة ذاك التراث في ضوء ظروف جديدة. هذا أيضًا ينطبق على الرسائل الراعوية (١ و٢ تيموثاوس وتيطس) وعلاقتها باسم الرسول بولس.

لم يتردّد كُتّاب الأناجيل لحظة واحدة في إعادة تفسير وصياغة أقوال يسوع ذاتها. إذا أخذنا على سبيل المثال، لا الحصر، مثل الخروف الضال في كل من متّى (١٨: ١٢–١٤) ولوقا (١٥: ٣–٧) في سياقهما الروائيّ، لوجدنا أن كلاً منهما استخدم المثل لأغراض مختلفة. المثل في متّى يخدم غرضًا إكليزيولوجيًّا (كنسيًّا)، مشدّدًا على ضرورة أن يُبذل كل جهد ممكن من قِبَلِ أفراد وجماعة الإيمان لاسترجاع أخٍ قد ضلّ إلى الحظيرة؛ بينما المثل في لوقا له هدف إرساليّ ويدعو إلى الاهتمام والتواصل مع أولئك المهمّشين اجتماعيًّا.

بناءً على هذه المعطيات نسأل: أَلَمْ يكن التراث بداية استجابة وشهادة للحدث الإلهي بيسوع المسيح؟ ألم يكن هذا التراث شهادة لحضور روح الله فيه؟ هل يمكن لحركة ما أن تنشأ وتنمو إن لم تكن متوافقة ومتناغمة مع الحدث المؤسِّس لها؟ أَلَمْ يكن حضور الله المستمرّ، وتوجيه وإرشاد الروح في ذاك التراث وتلك الحركة؟ ألا يمكن لروح الله، لَنَفَسِه، للوحي، أن يكون قد تموضع في الحدث وفي ذاك التراث الشاهد للحدث؟ باعتقادي نعم.

أسأل أيضًا: أَلَمْ يكن تفسير التراث وإعادة صياغته في ضوء ظروف جديدة

ومعطيات جديدة تعبيرًا عن أمانة جماعات الإيمان كي تعيش في ضوء الحدث الإلهي؟ أَلَمْ يكن روح، ونَفَس، ووحي الله حاضرًا في إعادة التفسير للتراث الشاهد للحدث؟ باعتقادي نعم.

أسأل أيضًا: أَلَمْ تكن كتابات بولس ومرقس ولوقا ويعقوب ويهوذا، كما هي موجودة الآن بشكلها النهائي، جزءًا من عملية إعادة التفسير والصياغة للتراث الشاهد للحدث الإلهي؟ بالتأكيد الجماعات لا تكتب، إنّما الأفراد هم الذين يكتبون. هم وكتاباتهم جزء من عملية طويلة. أليس نتاجهم أيضًا شهادة لاستمرارية حضور روح ونَفَس ووحي الله؟ باعتقادي أيضًا نعم.

إنّ طبيعة الكتاب المقدس التي عرضنا لها باختصار تشير وبوضوح إلى أنّ النصّ النهائيّ للكتاب المقدس هو جزء من عملية طويلة. أيُّ مفهوم للوحي في الكتاب المقدس يجب أن يأخذ هذه العملية الطويلة بعين الاعتبار وبجدية. هناك مثلّث يعمل: روح الله، نَفَسه، الوحي، فيه ومن خلاله: الحدث الإلهي بيسوع المسيح، التراث الشاهد لهذا الحدث والمتجدّد والمعاد تفسيره في ضوء الظروف التي واجهت جماعات الإيمان، والنص بشكله النهائي كما هو موجود في صفحات العهد الجديد.

روح الله، نَفَسُه، الوحي، يتموضع في هذه العناصر الثلاث. إذا أردنا الحديث عن كتاب موحى به، كتاب من روح ونَفَس الله، يجب علينا أن نرى روح الله في كل الذين كوّنوا التراث، وحفظوه، وأعادوا تفسيره وصياغته، ووضعوه في شكله النهائي. إذا لم يكن الروح حاضرًا في تلك العملية الطويلة، من الصعب أن نرى كيف يمكن لتلك المجموعة من الكتابات أن تكون موحى بها. الكتاب المقدس هو مشروع مشترك: إلهيّ وإنسانيّ(٣). إن التركيز على واضع النص بصيغته النهائية، كما هي الحال في النموذجَين النبويَّين اللذَين

(٣) Sandra Schneiders, *The Revelatory Text* (San Francisco: Harper, 1991) 48.

عرضت لهما سابقًا، في الحديث عن الوحي، غريب عن طبيعة الكتاب المقدس. طبيعة الكتاب تشهد على عملية طويلة لعمل الروح في جماعات الإيمان، ولا يمكن اختصارها بشخص واحد. إن الروح الذي كان يعمل في الحدث الإلهي، وفي التراث، وفي اعادة التفسير والصياغة، وفي النص النهائي للكتاب المقدس، هو الروح والنَفَس والوحي ذاته الذي يعمل حتى اليوم كلما كُرِز بأمانةٍ بكلمة الكتاب المقدس.